القراءات التأويلية بين المبدع والنص والمتلقي.

د. عبد القادر شريف حسني - جامعة بن خلدون — تيارت

تهدف هذه المقاربة إلى تحديد بعض المناحي الجديدة من خلال القراءات التأويلية للنصوص الأدبية بين المبدع والنص والمتلقي، من الجهة التي ينفتح فيها الخطاب على علاقة فوق لغوية بين القارئ والمبدع من خلال النص، بحكم أن المجال الإبداعي العربي متسع باتساع المخيال اللغوي. ولذلك تسعى القراءات التأويلية إلى دفع الفهم إلى حدوده القصوى، وهو بذلك يخترق اللغة التي ربما تعمل على تعتيم الطريق، ذلك أن القراءات التأويلية تبحث دوماً عن المعنى من خلال التعبير عما لا تمتلكه هذه اللغة.

وعليه فمن المجدي معرفياً أن نقف أمام عالم المعنى؛ هذا العالم الذي تهتم به القراءة. ولهذا لابدّ من الفهم الجيد لمفهوم القراءة، تلك القراءة التي تذهب بنا إلى فهم ما قرءنا، وتأويل ما فهمنا ليصل التأويل إلى الحدود التي ترسمها له هذه القراءة. من هذا المنطلق نتساءل عن حدود التأويل في الدراسات الحديثة؟ وما هي حاجة النص إلى التأويل؟ وهل يمكن الحديث عن قراءات تأويلية لها ضوابطها ومحدداتها؟ أم أن هذه القراءات لا تحدها حدود ثابتة؟ وما هو الجديد الذي سيقدمه التأويل حينما يشتغل على التراث العربي الإسلامي؟ وهل نجحت النصوص الأدبية في مباغتة قارئها على كل المستويات اللغوية؟ أم أن هذه النصوص لا يمكن أن تتجاوز نسقها الثقافي وهي مقيدة بلغتها؟ وانطلاقاً من هذه التساؤلات نفتح المجال لهذه الدراسة لتقدم لنا بعض النصوص النظرية التي من شأنها أن تحدد لنا بعض المفاهيم.

مفهومات التأويل:

يختلف الكثير حول تحديد مفهوم دقيق للتأويل، فمنهم من يسميه التفسير، ومنهم من يقول له الشرح، وآخر يقول الفهم، ومنهم من يعطيه المصطلح الغربي الهرمينوطيقا(*)، إلا أن هذا المصطلح الأخير في الغالب الأعم يُتجاوز من قبل العرب، وفي الوقت نفسه هناك من يرى بأنه المصطلح الأقرب إلى التأويل، وهناك كذلك من يرى أن الهرمينوطيقا أوسع من التأويل بحكم اعتمادها على الفلسفة.

* - تعني كلمة هرمينوطيقا (Hermeneutics): المفسر أو الشارح. ينظر دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص: 21.

إن الإشكال الواقع في تحديد مفهوم دقيق للتأويل يقع في غياب تأصيل المفاهيم والمصطلحات في اللغة العربية، وهذا ما تؤكده هذه الاختلافات في تحديد المصطلح الذي بين أيدينا، إذ نلجأ في الغالب إلى البحث عن المقابل عند الغرب.

التأويل بالمفهوم الغربي:

يذهب البعض إلى أن الاشتقاق اللغوي لكلمة هرمينوطيقا جاء من الفعل اليوناني Hermenein الذي يترجَم بالفعل يفسر، أما "غوسدروف جورج" فيرى أن الهرمينوطيقا تعود إلى عشرات القرون، وأنها بدأت في الإسكندرية وتطورت في عصر الأنوار وعصر الرومانسية، وهي في نظره ذات أصول دينية أملتها الحاجة إلى تأويل "الإنجيل"، إلا أننا نلاحظ أن هذا المصطلح لا يخرج عن معنى الشرح والتفسير -حسبما حدده كيحل مصطفى في كتابه الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون- لما هو غامض ومبهم(1)، كما قد يخرج المفهوم إلى أوسع من ذلك، وخاصة إذا ارتبط بالنصوص الإبداعية.

أما في العصر الحديث فقد ارتبط التأويل بالكتب المقدسة، والنصوص الدينية، ليكون بذلك التأويل مكوناً من ثلاثة فنون:

1- **تأويل النصوص المقدسة:** والهدف من هذا التأويل هو الوصول إلى القصد الإلهي في النص المقدس، وتجاوز ما ألحقته سلطة الكنيسة من تشويش للنص.

2- **التأويل القانوني (التشريعي):** أما هذا التأويل فيرنو إلى العودة إلى القوانين الرومانية بعد تخليصها مما ألحق بها من تشويهات.

3- **فقه اللغة أو الفيلولوجيا:** أما التأويل الفيلولوجي فيهدف إلى الرجوع إلى طزاجة المعنى في الآداب القديمة والتخلي عن اللاتينية البربرية.(2)

إن التحول من الطبيعة إلى النص يقتضي افتراض طريقة جديدة للتعامل مع العالم، وهو ما يتم إنتاجه وإنجازه ضمن الكلام والكتابة، وعليه يكون المعنى هو المعطى الأساسي في فهم العالم وشرحه ضمن الخطاب، كما أن مسألة المعنى أصبحت تغرق معها ملامح الفهم والوضوح وتلفها بالوهم الذي ينتج عن اللغة الحاملة للمعنى، وهو ما يستدعي آليات جديدة وقراءات جديدة لتحرير هذا الخطاب من الأوهام الناتجة عن اللغة وتخليص المعنى المضمر داخل النص.

---

[1] - ينظر كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011، صص: 86، 87.

[2] - ينظر كيحل مصطفى، م، س، ص: 89.

وترتبط الهرمينوطيقا كفن للتأويل والفهم بالنصوص كموضوعات تنوب عن العالم، وعلى التأويل أن ينجز الخطاب الذي تحمل فيه اللغة العالم وتثبته في النص. كما تمثل الهرمينوطيقا نشاطاً فعالاً لجهد الذات في تحصيل الحقيقة وتخليصها من الوهم، والسعي إلى تثبيت هذه الحقيقة في خطاب متصل بالكتابة.([1]) وتعمل الهرمينوطيقا كذلك على تحرير ما تجمده الكتابة وتوقف تحركه التاريخي. إنها تعمل على إحياء ما يموت، بفعل نسيان الذات لما تقتله الكتابة، إذ سعت الكتابة في كل حالاتها إلى قتل نصوصها، ومنه فإن هدف الهرمينوطيقا أن تقدم النص ليأخذ ماهيته وزمنيته، وبفعل هذه الحركة أصبح للهرمينوطيقا القدرة على توليد المعاني والمفاهيم، بواسطة إزاحة الحواجز والمطبات التي تلف اللغة الحاملة للمعاني([2])؛ أي أنها خرجت من الأحادية إلى التعدد.

<u>التأويل عند العرب:</u>

ارتبط التأويل عند العرب باللغة، بحكم أن هذا التأويل هو المرحلة اللغوية للفهم، وباعتبار الكائن لا يفهم إلا في مجال التكلم باللغة، «ومنه فإن أيّ تأويل وأيّ تحديد للمعنى داخل الثقافة العربية الإسلامية لا يتم إلا عبر إعادة خلخلة اللغة واستعادة زمن إنشائيتها، أي محاولة إخراجها ونشرها وبعثها، وإن كانت اللغة هي ما ابتدئ به الخلق فإن التأويل هو ما يُبتدئ به البعث والمعاد، فالتأويل عودة إلى خلقية اللغة وبعثية معانيها»([3]) كما ارتبط التأويل في اللغة بأول، وبفكرة الرجوع إلى الأصل الأول، وإلى المصدر، لما شكله لدينا هذا المصدر من سلطة الرجوع إليه([4])، نظرا لارتباط الفهم بتأويل هذه اللغة.

ومن ميزات القراءات التأويلية أنها تقوم على البحث في بنية العقل العربي، إذ لا تعتبر أن النقد والأدب كانا يعيشان بمعزل عن المجالات المعرفية الأخرى، لذلك عادت إلى البحث في المكونات التي تحكم الخطاب العربي، وكذا في الآليات التي انبنت عليها المعارف العربية، لما رأت أن الكشف عن هذه الآليات، هو كشف عن محركات الوعي العربي، وهو ما يساهم في كشف التراث، واستنطاقه[5]، من خلال تعدد القراءات، هذا التعدد الذي ينطلق من المرجعية الثقافية والاجتماعية للمتلقي.

---

[1] - ينظر عمارة ناصر، اللغة والتأويل "مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص: 19.

[2] - عمارة ناصر، م، س، ص: 205.

[3] - عمارة ناصر، م، س، ص: 96.

[4] - ينظر كيحل مصطفى، م، س، ص: 97.

[5] - ينظر خالد سليكي، الخطاب النقدي بين إدماج التراث وأفق التأويل، دار سليكي إخوان، المغرب، ط1، 2007، ص: 130.

محاولة التميز بين التأويل والهرمينوطيقا:

إذا ذهبنا إلى التمييز بين كلمة "هرمينوطيقا" وكلمة "تأويل" فإننا نجد أن الأولى ذات كثافة فلسفية، إذ تعمل الهيرمينوطيقا على تحليل الوجود، الذي يوجد بالفهم، لأنها لا تبحث عن المعنى من خلال النص فقط، وإنما تسعى للبحث عن معنى هذا الوجود كذلك. أما التأويل فيسعى للبحث عن المعاني الباطنية للنصوص[1]، لتكون الهيرمينوطيقا أوسع من التأويل.

أما "بول ريكور" فيرى أن التأويل هو اشتغال الفهم على فك الرموز، لتصبح وساطة الرموز والعلامات ضرورة من أجل فهم الذات لذاتها، مع عدم الثقة التامة بالنص وبالرموز الموجودة فيه، وهذا ما يدفعنا إلى إزالة الستار عن هذه الرموز لكشف ما هو موجود وراءها، لتبدأ مهمة التأويل المتمثلة في إزاحة ما هو مبهم وغامض، لذلك فتأويل النص لا يتم إلا بتأويل الذات المؤولة لذاتها، ومعنى ذلك أن يكون هناك تكامل بين فهم النص وتأويله وفهم الذات وتأويلها ([2])، ذلك أن توجهات النصوص تعكس توجهات مؤلفيها في الغالب الأعم.

الفرق بين التفسير والتأويل:

إن مهمة التفسير هي تحديد قصد الكاتب أو نواياه، وغرضه هو إيجاد التطابق بين ما يقصده الكاتب وما يفهمه المتلقي، كما يقوم على افتراض وجود معنى ثابت ومحدد من خلال قراءته للنص، والمطلوب منه -أي التفسير- إظهار هذا المعنى، وهو أداة للمدافعين عن المعنى. في حين أن التأويل هو البحث عن المعنى المحتمل وإخراج النص إلى القراءات التأويلية المتعددة([3])، التي تخرج النص من فضاء مغلق إلى أخر مفتوح قد يحيل إلى فضاءات متعددة «وبالتالي فالتأويل هو إحالة من دلالة إلى أخرى، وإعادة بناء الفهم بالمعاني السابقة، والنص لا يمكن استنفاذه فهو منتج للمعنى باستمرار، أي لا يمكن تجميده وحصره في قراءة واحدة، كما لا يمكن اكتشاف كل حقيقته ومكنوناته، وهذا ما يصدق على النصوص المقدسة والنصوص الإبداعية بشكل عام. وبالتالي فإن الجهد التأويلي، جهد مستمر ومنفتح لا يمكن رسم حدوده واستباق نهايته خاصة عندما يكون موضوع هذا الجهد هو اللغة»[4]، لأن حصر النص في قراءة واحدة، يقتل النص، وهذا لا يمكن أن يكون خاصة في النصوص الجديدة التي تعمد إلى التملص من التقليد، والبحث عن التعدد الدلالي، بفعل القراءات المستمرة لها.

---

[1] - عمارة ناصر، اللغة والتأويل، م، س، صص: 32،31.

[2] - ينظر كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، م، س، ص: 93.

[3] - كيحل مصطفى، م، س، ص: 101.

[4] - كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، م، س، ص: 100.

في حين ذهب "بول ريكور" إلى القول أنه على التأويل ألا يكون محتملاً بل ينبغي عليه أن يكون أكثر ترجيحاً من غيره، كما أنه ينبغي الوقوف مع أو ضد تأويل معين، والمواجهة بين التأويلات، وكذا الفصل بينها، وهذا بسبب كثرة طرق تفاسير النص الواحد، وبه فلا يمكن أن نقول بأن التأويلات متساوية، لأن النص يقدم لنا ميداناً محدوداً من الأبنية الممكنة، ويتيح لنا منطق التصديق أن نتحرك بين الدوغمائية(**) والشكيّة[1]، هذا في حالة التأويل، أما التفسير فهو غير ذلك، ولهذا نرى أن هناك اختلاف بين المصطلحين نظرا للنتيجة المتوصل إليها في الأخير، ومنه قد يد يكون التأويل أشمل من التفسير.

أما نصر حامد أبو زيد فمن بين العرب المهتمين بقضية التأويل إذ بيّن بينه وبين التفسير، وبيّن بين نوعين من التفسير؛ وهما التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي (أي التأويل)، ونجد أن هذا الأخير هو تفسير غير موضوعي، لأن المفسر فيه يبدأ بموقفه ثم يبحث عن سند لهذا الموقف في النص. أما التفسير بالمأثور فيعتمد على تفسير النص تفسيراً موضوعياً لأنه ينطلق من تجميع الأدلة التاريخية واللغوية التي تساعد على فهم النص[2]. ويضيف قائلاً بأنه إذا ذهبنا إلى تحديد التفسير من التأويل فينبغي العودة إلى كلمة تفسير في مجال التداول اللغوي. ومن الجدير بالذكر أن كلمة "تفسير" لم ترد في القرآن كله سوى مرّة واحدة، بينما وردت كلمة "تأويل" أكثر من خمسة عشرة مرة، ونجد كلمة تأويل تنتشر في اللغة العربية أكثر من كلمة تفسير. أما "شوقي ضيف" في كتابه العصر العباسي الثاني فقد ذهب إلى تحديد اتجاهات التفسير، والتي قسمها إلى أربعة أقسام، هي:

أقسام التفسير:

1- اتجاه التفسير بالمأثور: وهو المعروف عند محمد بن جرير الطبري، حيث استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل ما آثر عن الصحابة.

2- التفسير بالرأي أو التفسير الاعتزالي: وهو تفسيرات المعتزلة لآي الكتاب الكريم التي كانت عبارة عن تأويلات عقلية.

** - هي التعصب لفكرة معينة ورفض الاستماع لكل الأفكار الأخرى وحتى عند توفر دليل ضدها فإن الدوغمائي يرفض مناقشته، وهو حالة متقدمة من الجمود الفكري. وتظهر حالة الدوغمائية هذه عادة عند المتشددين دينيا أو سياسياً، حيث يعتبر نقاشهم مسألة ممنوعة وأفكارهم مقدسة غير قابلة للمس.

1 - ينظر بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006، ص: 128.

2 - ينظر نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي،المغرب،ط6، 2001،ص:13.

3- التفسير الشيعي: وهو التفسير الذي خرج عن ظاهر القرآن الكريم ملتمساً تأويلات بعيدة.

4- التفسير الصوفي: أما هذا النوع فكانت كل مآربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية.([1])

القراءة ورمزية اللغة:

يشكل النص الوساطة بين العالم والذات من خلال رمزية اللغة، إذ يتم تحويل هذا العالم إلى نص للاقتراب من الحقيقة، لكن هذه المرحلة ليست مرحلة نهائية للوصول إلى الحقيقة، لأن الحقيقة تصبح بعد ذلك أكثر رمزية داخل النص بحكم تحولها إلى رموز قابلة للتأويل، ولذلك يتحول النص من كائن يقول ويتكلم بفعل الكتابة أولاً، ثم بفعل القراءة، ذلك أن الكتابة تعمل على تثبيت تمثلات هذا العالم. أما القراءة فتقوم بفك الشيفرات لفهم هذا النص، ومن ثمة فهم هذا العالم، والدخول إليه، إذ يكون الدور الكبير هنا للغة التي تعمل جاهدة على ترميز العالم والواقع وحملهما عبر النص إلى الفهم، وبذلك تكون مهمة اللغة هي تقريب العالم من الذات، والذات من العالم عبر تقنيتها التي تعمل على كشف الحقيقة، وإبعادها عن الوهم، وهنا يكون تأويل النص عبر اللغة لتخليص المعنى من الوهم[2]، ليصبح الناقد الواقعي حين يقترب من التأويل مضطراً للحديث عن الواقع، ومضطراً للبحث عن معنى أيديولوجي يسميه تارة بالوعي وتارة بالرؤية، وتارة أخرى بالموقف الأيديولوجي، واكتسب بذلك التأويل دائرة أخرى تسمى بدائرة التأويل الأيديولوجي، التي لا تركز على النص، ولا على الكاتب، بل تركز على وضع هذا المعنى في إطار ظرفية سياسية واجتماعية وطبقية. [3]

كما ذهب "فريدريك شليرماخر" إلى «أن القراءة فن، وإن على قارئ النص أن يكون فناناً بالقدر نفسه الذي يكون عليه مؤلف النص. بمعنى آخر، القراءة فعل إبداعي كما هي الكتابة أيضاً. والمفاوضات التي تحصل بين النص والقارئ، هي نتيجة نابعة من قلقين (...): أولهما القلق في أن نفهم (وهو الذي لأجله نكتب)، وثانيهما القلق في أن نفهم (وهو الذي لأجله نقرأ). وعلى القارئ لأجل مواجهة القلق الثاني، أن يتحلى خلال عملية القراءة بالانضباط، وأن يكون صاحب مزاج وحدس فنيين»([4])، حتى يستطيع أن يخرج بجملة من النتائج التي من شأنها أن تفتح النص على مفاهيم أخرى، باعتبار

---

[1] - ينظر شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1981، صص: 161، 163.

[2] - ينظر عمارة ناصر، م، س، صص: 24، 26.

[3] - ينظر محمد الدغمومي، نقد الرواية والقصة القصيرة بالمغرب "مرحلة التأسيس"، شركة النشر والتوزيع، المغرب، ط1، 2006، ص: 242.

[4] - دافيد جاسبير، مقدمة في الهرمينوطيقا، م، س، ص: 120.

المتلقي هو مبدع أخر لهذا النص، كما يمارس النص سلطته على كل من المبدع، والمتلقي، وذلك من خلال استنطاقها، وهذا لا يعني أننا سنصل إلى المبتغى، وإنما يفتح ذلك أمامنا تفسيرات أخرى تحثنا لتحصيل رؤى جديدة، ومنه فعملية «القراءة تقترن بعملية أخرى، هي العملية التأويلية. والتأويل عملية تقوم على النصوص، باعتبارها خطابات منفتحة باستمرار على القراءات؛ كما تميز بتعدد إمكانيات قراءتها»([1]) لتخرج من جديد إلى تأويلات أخرى، وهكذا تستمر الحركة.

مساءلة النص:

يعمل النص على استفزاز القارئ، ولهذا يلجأ القارئ إلى إقامة حوار بناء بينه وبين النص الذي يقرأ، ذلك أن الظاهرة التأويلية تبدأ بمساءلة النص من خلال الحوار الذي يكون بين القارئ وما يقرأ، ومن خلال السؤال الذي يطرحه النص على المؤوِّل. وأن فهم النص مرتبط بفهم هذا السؤال الذي يبدأ به النص، وبالتالي فإن هذه الأسئلة المتبادلة بين النص وقارئه، هي التي تجعل من النص كائناً حياً، وأن فهمه لا يكون إلا بامتلاك أفق المساءلة؛ هذه المساءلة التي نخرج من خلالها بإجابات جديدة، لتؤدي هذه الإجابات بدورها إلى مساءلات أخرى([2])، تؤدي بدورها إلى قراءات أخرى، من شأنها أن تفتح النص أكثر.

كما أننا نسعى من خلال النص إلى استنطاق العالم؛ هذا العالم الصامت الذي ننطقه عبر النص الذي يمثل المكتوب والمنطوق، وهو الفرق الذي يطرح الإشكال في كيفية تحويل هذا الصمت إلى كلام، والكلام إلى كتابة، والكتابة إلى نص، ومنه يتحول هذا العالم عبر هذه الخطوات إلى نص، وبه يقوم النص بتقليص المسافة بينه وبين القارئ، ومنه نكون قد وصلنا إلى الذات، لكن هذه المسافة الموجودة بين العالم والذات تمر عبر خطوات ثابتة، تحتاج إلى جهد تأويلي يقرب الحقيقة من هذه الذات التي تسعى دوماً إلى الكشف عن هذا العالم(3)، من خلال قراءة النص.

الخطاب ودلالة النص:

المعروف أن الجمل في الخطاب تدل على المتكلم من خلال الأدوات الإشارية المتعددة للشخصية المتكلمة، أما بالنسبة لقدرة الخطاب على الإحالة إلى المتكلم في الخطاب المنطوق فتقدم سمة البداهة وهذا بديهي بطبعه، لأن المتكلم هنا طرف في سياق القول كما الخطاب، وبالتالي يتداخل ما يعنيه

---

[1] - خالد سليكي، م، س، ص: 139.

[2] - ينظر عمارة ناصر، اللغة والتأويل، م، س، ص: 48.

[3] - ينظر عمارة ناصر، م، س، صص: 28، 29.

المتكلم بما يعنيه الخطاب ويصير أمراً واحداً، هذا بالنسبة للنص المنطوق. أما بالنسبة للنص المكتوب فالأمر يختلف، لأن قصد المؤلف ومعنى النص يكفان عن التطابق والتمازج في المكتوب، وهذا الانفصال الذي يكون بين المعنى اللفظي للنص والقصد الذهني للمؤلف يضفي على الكتابة دلالته الحاسمة، فهذا التسطير هو ما يعطي الاستقلال الدلالي للنص، لأن ما يعنيه النص أهم مما يعنيه المؤلف[1] وهذا نظراً لانفتاح النص على دلالات متعددة، وعليه فإن النص من هذه الزاوية إذن، لا يشتمل على معنى، ولا حتى على معان جديدة، «ولا يضم بين دفتيه دلالة نهائية كلية أو جزئية، بل هو خزان كبير لسياقات بالغة التنوع والتعدد والتجدد. وهذا ما يمنح الذات المؤولة موقعاً بالغ الأهمية. فلها وحدها الصلاحية في تحيين هذه الدلالة أو تلك ضمن هذا المسار التأويلي أو ذاك، ضمن شروط "الانتقاء السياقي" والظروف المقامية الخاصة بكل فعل قراءة»([2])، إذ لا تقل علاقة النص بالقارئ عن علاقته بالمؤلف، فحيث يتوجه النص المنطوق، إلى شخص معين يحدده الحوار، يتوجه النص المكتوب إلى قارئ مجهول، وضمناً إلى كل من يعرف كيف يقرأ، وميزة النص المكتوب أنه يتوخى موقف المشافهة وجهاً لوجه، ولهذا فهو أكثر امتلاءً بالروح من النص المنطوق[3]، كما أن النص المكتوب قد يخرج بدلالات لا يعرفه المبدع نفسه، لأن هذا النص حين يخرج من عند المؤلف فإنه يتوجه إلى مبدع آخر ألا وهو المتلقي، ومع كل متلق يخرج النص بدلالة جديدة، تبعث الروح في النص.

النص بين المبدع والمتلقي:

إن الاستقلال الدلالي للنص هو ما يجعل من «المؤلف بعداً من أبعاد النص بقدر ما يكون من المتعذر استحضار مؤلفه لاستجوابه. و حين لا يجيب النص، يثبت أن له مؤلفاً، لا متكلماً به، فمعنى المؤلف هو النظير الجدلي للمعنى اللفظي، وينبغي تفسير أي واحد منهما من خلال الآخر، هذه المفاهيم عن المؤلف ومعنى المؤلف تطرح مشكلة تأويلية مزامنة لمشكلة الاستقلال الدلالي»([4])، ولذلك فإن النص يتجه ضمناً لكل من يعرف كيف يقرأ، كما أن النص يختار جمهوره وهو الذي يوسع من دائرة الاتصال، هذا الاتصال الذي لا يمكن التنبؤ به في البداية، لكن يظهر بعد ذلك لأن استجابة الجمهور لهذا النص هي التي تجعل منه نصاً مهماً ودالاً، ومن طبيعة النص أنه ينفتح على عدد من القراء سواء أكان هذا العدد قليلاً أم كثيراً فإنه عدد من التأويلات، وبه فإمكانية انفتاح النص على قراءات متعددة

[1] - ينظر بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، م، س، ص: 6.

[2] - سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل "مدخل لسيميائيات ش. س. بورس"، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005، ص:185.

[3] - بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، م، س، ص: 63.

[4] - بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، م، س، ص: 62.

هو ما يقابل الاستقلال الدلالي للنص، ليتداخل حق القارئ بحق النص مما يولد حركية التأويل([1])، وليغدو النص بمثابة المعنى الذي يدعونا لنعايشه كتجربة فريدة، ويغدو هذا المعنى بهذه الطريقة كالأثر. لأنه يولد اضطراباً لا يمكن لأي شرح أن يمحوه بل يولد اختلالاً لكل محاولة نحاول من خلالها الشرح، وينتج هذا الشرح عندما يصل القارئ من خلال النص الذي يقرأ إلى تجربة تكاد تكون متطابقة مع تجربته، فيتخذ من خلال ذلك شكلاً من أشكال التماهي كما أن كل محاولة للشرح تموضع النص في إطار مرجعي خاص([2])، يختلف باختلاف القراء، وباختلاف المرجعيات.

فنحن حين نربط بين المؤلف والنص، فإن دراستنا هذه تنطوي تحت لواء ما يسمى "بالتأويل النفسي السيكولوجي" لأننا قمنا بربط كل من المبدع والنص والمتلقي، باعتبار أن التأويلية التقليدية كانت تهتم بالنص دون المؤلف، فالنص «ينتج عن التجربة الفردية والذاتية للمؤلف، وهي التجربة الدالة على النشاط الذهني، أي اعتبار النص نتاجاً للنفس، من أجل التوافق مع باطن المؤلف وإعادة بناء العملية المنتجة للخطاب»([3])، إلا أن النص الغامض يقدم لنا جملة من الأخبار، لأنه يقترح عدداً لا بأس به من التأويلات قد تصل إلى درجة التشويش، إلا أنه يثير فينا الجهد التأويلي الذي يسمح لنا باكتشاف مخابئ الشفرات القابعة في ثنايا النص مما يسهم في القبض على بعض الدلالات التي تخدم عملية القراءة، كما يتخذ النص مستويات عديدة من الحقائق والوقائع، مثل المستوى التقني الذي يتمثل في الأسلوب، والمستوى الفيزيائي الذي يتمثل في الأيقونة، وكذا التواضعي والإيحائي، زيادة على مستويات الانتظار النفسية والمنطقية والعلمية والاجتماعية([4])، التي من شأنها أن تنير بعض الزوايا المظلمة.

لكن من خلال مقارباتنا هذه نريد أن نحدد شيئاً ربما يكون غامضاً بالنسبة للمتلقي، وهو أننا لا نستطيع أن نبين التأويل الصحيح من التأويل غير الصحيح، وذلك بحكم تعدد القراءات والتأويلات حسب ثقافات المتلقين، ومع هذا يمكننا أن نقول أن المبدع هو أفضل مؤول لنصه لأنه الوحيد الذي يمتلك المعنى الأصلي للنص، لأن الهرمينوطيقا لا تعمل بالمنطق بشكل كبير، بل إن عملها مستمد من عمل النص، وعمل النص هو إنتاج الرموز والعلامات كما أنها -أي الهرمينوطيقا- لا تعتبر علماً للتأويل بل فناً للتأويل، والفن مربوط بجماليته لا بمنطقيته، وأنها تمتلك الأدوات التي تمكنها من اقتحام النصوص لفك رموزها، وأول هذه الأدوات هي المسألة التي تفرضها الهرمينوطيقا على النص من خلال الحوار الذي

---

[1] - ينظر بول ريكور، نظيرة التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، م، س، صص: 63، 64.

[2] - ينظر وحيد بن بوعزيز، حدود التأويل "قراءة في مشروع أمبرتو أيكو النقدي"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص: 88.

[3] - كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، م، س، ص: 90.

[4] - ينظر وحيد بن بوعزيز، حدود التأويل، م، س، صص: 61، 62.

تفتحه مع النص، وأنها تعتبر النص بمثابة الكائن الذي يتكلم ويقول بفعل القراءة. لكن ليست الذات هي التي تنطق النص أولاً، ولكن النص هو الذي يستفز هذه الذات، ويستفز قراءه ككل بفعل الأسئلة التي يطرحها على من يتقدم إليه، وفهم النص لا يتم إلا بفهم الإشكالات التي يطرحها هذا النص على متلقيه([1])، كما أن فتح النص على إمكانات الفهم لا تتوزع إلا بشكل أنطولوجي لتحفظ استمراريتها، وأن هذا النص لا يمكن أن يتخذ بعداً تأويلياً إلا بتوسط الرموز، هذه الرموز التي تنقلها لنا الكتابة عبر النص لتنتقل من دلالة البرهان التي تفيد العلم إلى دلالة الكلام التي تفيد التأويل، لأن الرموز هي التي تفتح المسار الابستمولوجي عبر كل من التفسير والتأويل والفهم والشرح على تحويل الحقيقة إلى معنى، وإلى نصوص أخرى، والتي بدورها تؤدي إلى عوالم أخرى، ومنه فإن التأويل، لا يقوم بترسيم الدلالة التي يقدمها الرمز، وإنما يقوم بتعديل الإشارة التي تقدمها الكتابة الأولى للرمز؛ أي لغة النص الأصلية، وبهذا فأية كتابة ثانية -والتي هي بدورها تعتبر قراءة- لا تحافظ على الدلالة الأصلية للرموز، وبه يكون تعديل الإشارة أمراً طبيعياً وتلقائياً مع كل قراءة([2])، لأن النص هو الذي يستفز القارئ، ويدفعه، إلى تعديل هذه الإشارات، وهذا بدوره أمر طبيعي، نظرا لتفاوت مستويات القراء.

وأن هذه الإشكالات -المشار إليها- لا تظهر إلا بفعل هذا القارئ الذي يستخرجها من النص بعد استنطاقه لهذا النص. «وفي هذه الحالة، فإن كل شيء يقاس بالعلاقة الموجودة بين النص والقارئ (أي بين العلامة ومستهلكها)، فضمن هذه العلاقة تتحدد القراءات وتتعدد التأويلات وتتناسل. وعلى هذا الأساس أيضاً، فإن الاعتراف بوجود هذه العلاقة هو اعتراف -ضمني أو صريح- بوجود مادة دلالية أولية سابقة في الوجود عن تدخل الذات القارئة، وإلا لما أمكن الحديث عن قراءات متعددة لنفس المادة المضمونية الأولية»([3])، وهذا شيء عادي باعتبار أن النص في شكله واحد لكن في دلالته ليس واحدا، لأن الدلالة مرتبطة بالقراء، إذ لكل قارئ مفهومه الخاص لهذا النص، ودلالته الخاصة به حسب مرجعية كل واحد منا.

النص.. من الحقيقة إلى المجاز:

إن الافتراض يجعلنا نعتقد أن حالة اللا-فهم التي تنشأ من اشتغال المجاز على قصود اللغة ناشئة أصلاً من الدخول المباشر لمواقع القصود على النص معتبرة ما يتم اكتشافه لحظة القراءة الأولى مفاتحاً أساسية لأيّة قراءة، أي لأي تأويل، وبه تبقى الاستنتاجات المتحصل عليها من القراءة الأولى ثابتة في

[1] - ينظر عمارة ناصر، م، س، صص: 32، 33.
[2] - ينظر عمارة ناصر، اللغة والتأويل، م، س، ص: 41، 42.
[3] - سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل"مدخل لسيميائيات ش. س. بورس"، م، س، ص: 185.

عملية الفهم، إذ تحتفظ بالقصود المرجعية للنص. أما بالنسبة للمجاز وعلاقته بالنص، فإنه يقوم بحفر مواقع جديدة، إذ تعمل هذه المواقع على خلق نوع من اللا-فهم بحكم أن القراءة الأولى والاستنتاجات المتحصل عليها سابقاً قد سيطرت على عملية الفهم([1])، وأصبحت كالمرجعية التي تنطلق منها التأويلات الأخرى. كما أن «العلاقة بين المعنى الحرفي والمعنى المجازي أشبه بنسخة مختصرة في داخل جملة واحدة من الدلالات المعقدة المتداخلة التي تسم العمل الأدبي ككل. وأعني بالعمل الأدبي هنا العمل الذي ينطوي على خطاب متميز عن أي عمل آخر ذي خطاب، ولاسيما الخطاب العلمي، بكونه يربط المعنى الصريح (...) بالمعنى الضمني»([2]) وهذا التمييز بين المعنى الصريح والمعنى الضمني هو تمييز بين اللغة الإدراكية واللغة الانفعالية؛ هذه الأخيرة التي تستدعي من النص المجازي أن يكون خالياً من أية دلالة إدراكية، «فالنص حمّال أوجه كما قيل. إذ هو بيان وإعجاز. والإعجاز البياني فضاء تأويلي، أي كلام ينفتح على غير تفسير، ويحتمل أكثر من تأويل. وكل مؤول إنما يستعيد نفسه عبر تأويله، ويقرأ ذاته، - إلى حد ما- فيما هو يقرأ في النص. وكلما اتسعت تجارب المرء واغتنت خبراته وتطورت أحوالها، وقف فيه على معان جديدة»([3])، ذلك أن التعدد الدلالي الذي أشرنا إليه مربوط بثقافة المتلقي، لأن كثرة القراءة هي التي تساعد القارئ على كشف مخبوء النص، وهذا القارئ هو ما يطلق عليه، اسم "القارئ المثالي".

تأويل النص الديني:

اختلف أهل التفسير في تفسير القرآن الكريم، إذ ذهب الفقهاء وعلماء الأصول بصفة خاصة في تأويلهم إلى التمييز بين الخطاب الإلهي المتقدم والمتأخر في ترتيب النزول لإزالة الغموض بحكم أن المتأخر قد ينسخ المتقدم، وبه فإن قضية الناسخ والمنسوخ تمثل حلاً - في كثير من الحالات- تأويلياً يثبت الكثير من الأحكام، إذ يسهل على الباحث أن يميز بين تأويل الفقهاء وتأويل المتكلمين، بالرغم من القاسم المشترك بين كليهما وهو رفع الغموض عن النص القرآني، وهذه هي مهمة التأويل التي تتمثل في رفع الستار عن الغامض من خلال شرح النص القرآني، وحتى النصوص الأخرى، إلا أننا هنا نشير إلى أن هناك اختلافات كثيرة في تأويل النصوص نظراً لاعتماد روايات مختلفة إلى حد التناقض، وحتى حسب المرجعيات المستمدة منها هذه النصوص إذ لم يكن في وسعهم أن يسلموا بأن اختلاف الأحكام وتعددها لا يمثل تناقضاً بقدر ما يمثل أفقاً مفتوحاً أمام الجماعة أو أمام المجتمع للاختيار الأنسب للسياق والظروف

[1] - ينظر عمارة ناصر، م، س، ص: 98.

[2] - بول ريكور، نظرية التأويل، م، س، ص: 85.

[3] - علي حرب، خطاب الهوية "سيرة فكرية"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2008، ص: 141.

المتغيرين، من هنا كان السعي لإزالة ما بدا لهم تناقضاً مبنياً على محاولة لتثبيت الأحكام من خلال مبدأ قانوني فحواه أن الحكم المتأخر ينسخ المتقدم.[1]

أما محمد أركون فقد ذهب إلى التمييز بين الحالة التأويلية والدائرة التأويلية لتكون الحالة التأويلية خاصية كل فكر يفتقد للأدوات المفهومية والمنهجية القادرة على نقد المعرفة الدينية، وبه فإن الحالة التأويلية هي التي يسبق الإيمان فيها الفهم عكس الدائرة التأويلية التي تجمع بين الفهم والإيمان، لأن الدائرة التأويلية هي صيغة أخرى للقول بلا محدودية التأويل، ويخلص التأويليون إلى أن هناك حاجة لتأويل النصوص الدينية بصفة خاصة والتراثية بصفة عامة من خلال تحديد تقنيات في القراءة وأدوات لفهم النص وكشف أيديولوجيا النصوص المقدسة من طرف حراس الحقيقة، وإظهار الفرق بين القراءة واللغة، واللغة والنص، والتأويل والنص، وتحديد كل الفروقات التي من شأنها تحديد المفاهيم، لأن التأويلية تبحث عن المعنى، ومعنى المعنى من خلال تأويل التأويل وخاصة أن للمعنى عدة وجوه ومستويات بحيث لا يمكن القبض عليه باعتباره فضاءً مفتوحاً، مما يجعل إمكانية التأويل النهائي للحقيقة عملية غير ممكنة([2])، وهو ما يجعل النص أكبر من المتلقي وحتى من المبدع، ليتحول هذا النص الصادر عن مبدع واحد، إلى نص صادر عن عدد كبير من المبدعين، لأن القارئ هو في الأصل مبدع آخر لهذا النص، فاللفظ إذا جاء بيّننا وواضحاً «وأنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو عليه حتى لا يُشْكل، وحتى لا يحتاج في العلم بأن ذلك حقُّه وأنه الصواب، إلى فكر ورويّة فلا مزيّة. وإنما تكون المزيّة ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذي جاء عليه حسناً وقبولاً تعْدَمُها إذا أنت تركته إلى الثاني» وهو ما يتعلق بقضية التقديم والتأخير والتي لها فائدة شريفة ومعنى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير.

وختاما لما سبق، فإننا من خلال قراءتنا للنصوص الأدبية لا نبحث عن قصد المؤلف بالدرجة الأولى ولا نلغيه في الوقت نفسه، وإنما ينصب جل اهتمامنا على ما تخفيه السطور، وما يحيل عليه النص، وهنا تكمن القوة الكبيرة للقراءة المتمعنة التي تستطيع بفعل صاحبها ومرجعيته الثقافية قلب الأحجار المتراكمة والمتراكبة على النصوص التي تخفي داخلها الكثير من المعاني، والتي في الوقت نفسه تكون مفتوحة على القراءات المتعددة، وبالتالي التأويلات المتعددة، والنص الذي يوسم بهذه الصفة هو النص الذي لا يموت بفعل تعدد معانيه التي قد لا يعرفها الكاتب في حد ذاته.

---

[1] - ينظر نصر حامد أبو زيد، التجديد والتحريم والتأويل "بين المعرفة العلمية والخوف من التكفير"، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2010، ص: 209.

[2] - ينظر كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، م، س، صص: 102، 105.

قائمة المراجع:

- بول ريكور، نظرية التأويل "الخطاب وفائض المعنى"، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2006.
- دايفيد جاسبر، مقدمة في الهرمينوطيقا، تر: وجيه قانصو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
- وحيد بن بوعزيز، حدود التأويل "قراءة في مشروع أمبرتو أيكو النقدي"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
- كيحل مصطفى، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2011.
- محمد الدغمومي، نقد الرواية والقصة القصيرة بالمغرب "مرحلة التأسيس"، شركة النشر والتوزيع، المغرب، ط1، 2006.
- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط6، 2001.
- نصر حامد أبو زيد، التجديد والتحريم والتأويل "بين المعرفة العلمية والخوف من التكفير"، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2010.
- سعيد بنكراد، السيميائيات والتأويل "مدخل لسيميائيات ش. س. بورس"، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2005.
- عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2001.
- علي حرب، خطاب الهوية "سيرة فكرية"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2008.
- عمارة ناصر، اللغة والتأويل "مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي"، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
- شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1981.
- خالد سليكي، الخطاب النقدي بين إدماج التراث وأفق التأويل، دار سليكي إخوان، المغرب، ط1، 2007.